متابعة

في ندوة افتراضية نظّمها، الخميس، «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في باريس»، تحلّل عالمة الاجتماع تعامُل فرنسا بشكل جوهراتي مع مواطنيها المسلمين، متسائلة إن لم يكن النظر إلى المسلمين كـ«ارهابيين محتملين» يمهّد الطريق للاسوأ

باريس ـ **محمود الحاج**

يشكّل المسلمون في فرنسا واحداً من المواضيع التي لا يكاد النقاش العام في البلد يُغادرها. إذ لا تمضي أيّامٌ على انتهاء جدلٍ يدور حولهم، أو يستهدفهم صراحةً، حتّى يولّد نقاشٌ جديد يخصّهم، وقد بات معروفاً أن المسلمين هم أبرز الغائبين، بشكلٍ شبه دائم، عن هذه النقاشات. أبعد من ذلك: لا تنبثق هذه النقاشات من مبادرتهم أو مبادرة بعض منهم، بل يمكن القول إنها تعاكس تماماً رغبة هذه الشريحة من الفرنسيين في تجنّب التحوّل إلى «عَرَض» دائم للنقاش العام والإعلامي، أو إلى موضوع أو حتّى فزّاعة سياسية وانتخابية.

وقد كانت الأسابيع والأشهر الماضية «مثاليّة» في هذا الصدد، إذ شهدت نقاشاتٍ لاذعةً حول مشروع القرار المسمّى «قرار الانفصالية»، الذي كاد النقاش حوله ينحصر في كيفية التعامل مع المسلمين الفرنسيين وقوننة «إسلام فرنسي» أو «إسلام أنوار»؛ كما رافقت هذا القرار تصريحاتٌ للرئيس الفرنسي، إيمانويل ماكرون، تسبّبت بضجيج كبير، لا سيّما خارج فرنسا، منتصف الخريف المنصرم. يضاف إلى هذا وذاك قيام الحكومة الفرنسية بإغلاق عدد من المؤسسات والجمعيات الإسلامية باعتبارها تساهم في الدعاية للإسلاموية، وذلك بُعيد العملية الإرهابية التي استهدفت أستاذ تاريخ وجغرافيا في منطقة إيفلين منتصف تشرين الأول/ أكتوبر الماضي.

في هذا السياق تأتي الندوة الافتراضية التي نظّمها «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في باريس» (Carep Paris) مساء الخميس، تحت عنوان «علمانية، انفصالية، إسلاموية وإسلاموفوبيا: مسلمو ومسلمات فرنسا في شتّى أحوالهم»، وتحدّثت فيها عالمة الاجتماع المختصّة بمسائل الإسلام في فرنسا، والناشطة النسويّة، حنان كريمي الندوة التي أدارتها مديرة الأبحاث في المركز، كلير تالون، انطلقت من وصف الوضعية التي يجد المسلمون في فرنسا أنفسهم فيها: وضعية «الآخر الجذري».

تعلّق كريمي على هذا التركيب الاصطلاحي، الذي يمثّل إحدى الأطروحات الأساسية لرسالة الدكتوراه التي قدّمتها في علم الاجتماع عام 2018، بالقول إنه تعبيرٌ عن ميكانيزمات سلطويّة، باعتبار أن كلّ فعل تحديدٍ أو تعيينٍ للآخر يأتي من موضع سُلطة يشغله مَن يقوم بهذا الفعل. في هذا المقام، يمثّل تعيين المسلمين الفرنسيين بخصوصيّتهم، الحقيقية أو المفترضة، كـ «مسلمين»، عملية تقود إلى تأطيرهم وحصرهم في مساحة متخيّلة لا تأخذ بعين الاعتبار الاختلافات، الكبيرة أحياناً، بين مسلم من المغرب، على سبيل المثال، وآخر من تركيا أو من شرق أوروبا. والأهمّ من هذا أن المعنيّين بهذا التعيين يُختصَرون بجزء من كينونتهم أو هويّتهم يُعرَّفون به قبل ودون أيّ تعريف آخر، ليجدوا أنفسهم وقد جرت جوهرَنتهم بوصفهم «مسلمي فرنسا».

وترى كريمي، التي تقول إنها استعارت مصطلح «التعيين في منزلة الأخروية الجذرية» هذا من الباحثة سارة معزوز، إن عملية تثبيت المسلم الفرنسي في موقع الآخر المختلف تماماً قد ساهمت بتهميش المسلمين في البلد، المنحدرين بشكلٍ أساسيّ من المغرب العربي، وحالت دون ضمّهم إلى ما تسمّيه «الجسد الوطني» الفرنسي. عمليّةٌ تعيد بدايتها إلى أولى فترات وصول المهاجرين، بدفعات كبيرة، في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي.

لكنّ المدرّسة في «جامعة ستراسبورغ» ترى أن القراءة التاريخية لمقاربة فرنسا لمسألة المسلمين فيها تُظهر اختلافاً مرحلياً في هذه المقاربة. وإذ تشير إلى التسامح النسبي مع العمّال المسلمين في مصانع السيّارات الفرنسية ومع مطالبهم، في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، بتوفير صلات للصلاة على سبيل المثال، فإنها تنبّه إلى ولادة شكل من أشكال الضغط والاشتباه، وحتى العنصريّة، حيال المسلمين في البلد، بدءاً من عام 1989 الذي شهد ما عُرف حينها بقضيّة الحجاب في مدينة كراي.

وعلى خطى عالم الاجتماع الجزائري عبد المالك صيّاد (1933 - 1998)، تحلّل كريمي سبب هذا التغيّر في الموقف من المسلمين الفرنسيين في الأخيرة مسرحه في فرنسا، حول هويّة البلد الذي قد يتعهّد مسألة إعداد أئمة فرنسيين، إلا جزءاً من هذا الرغبة في فرض الوصاية. هكذا، وجد المسلمون الفرنسيون أنفسهم أمام خيارين إشكاليّين: إما تمثّل نمط العيش الفرنسي والانصهار فيه، بما يعنيه ذلك من إخفاء أو كبت أو إنكار الاختلاف الثقافي (والديني) الذي يمثّلونه بالنسبة إلى المجتمع الفرنسي، أو الذهاب به «التعيين في منزلة الأخروية الجذرية»، أي بـ «الاختلاف الجذري» عن الفرنسيين، إلى حدود بعيدة، عبر تبنّي هويّة يصبح الإسلام أو ربما الإسلاموية مكوّنها الأهمّ، رغبةً في تمييز الذات عن الفرنسي الرافض، وفي الردّ على مقاربته المؤطّرة والمحدّدة. الخيار، إذاً، محصورٌ بين الانصهار التام أو التمترس الهوياتي؛ بين محو الاختلاف، أو الإقصاء بمعنىً ما، وبين الميَلان إلى الراديكالية.

الدهشة الفرنسية من عدم انصهار قسم من أبناء المهاجرين في الثقافة السائدة، رغم ولادتهم ودراستهم في «مدارس الجمهورية»، ستؤدي، في السنوات اللاحقة، إلى ردّة فعل متمثّلة في سلسلة من القوانين، أبرزها قانون منع المظاهر والرموز الدينية في المدارس (2004)، وقد لا يكون آخرها قانون الانفصالية الذي أخرجه الرئيس الفرنسي من جعبته قبل أشهر، لمواجهة «الإسلام السياسي» و«التطرّف الإسلاموي». كما فعل، في الآونة الأخيرة، عددٌ من زملائها الباحثين في شؤون المسلمين في فرنسا، تتساءل حنّان كريمي، في هذا السياق، إن لم يكن المناخ العام الذي اختلقته المقاربة الفرنسية لمسألة المسلمين الفرنسيين، في الأشهر وربما السنوات الأخيرة، مناخاً خصباً لتوليد التطرف والأشكال الهويّاتية الجذرية. ذلك أن الإصرار على وصم هذه الشريحة من الفرنسيين، واختصار حياتها بُبعدٍ واحد منها، وتصوير أفرادها كـ«إرهابيين محتملين»، أو كأشخاص مشتبهٍ بولائهم، قد يساهم بتهييء الظروف للأسوأ، أي لما تحاول هذه المقاربة محاربته: التطرّف.

على مسلمي فرنسا الاختيار بين الانصهار التام أو الإقصاء

تعيين الآخر وتحديده في إطار هو فعلٌ سلطويٌ في حدّ ذاته

الخطاب الفرنسي العام بردّه إلى اكتشاف فرنسا أنّ ما كانت تنتظره من المهاجرين المسلمين وأبنائهم لم يحدث: أي أنهم - بعبارة كريمي اللاذعة - لم يصبحوا من ذوي البشرة البيضاء. وتضيف سبباً آخر متمثّلاً برغبة مسؤولي البلدان التي جاء منها الآباء المهاجرون بوضع الفرنسيّين المنحدرين من بلدانهم تحت وصايتهم. وليس النقاش، الذي كان الأشهر

حنان كريمي (Getty)

مسارات وتجارب

تعدّ حنان كريمي (1977) من أبرز الناشطات النسويات المسلمات في فرنسا، وقد خصّصت رسالة الدكتوراه، التي أنجزتها عام 2018، لمسألة تحرّر الفرنسيات المسلمات وطرق مقاومتهنّ للوصم الذي يتعرّضن له، ولخطاب عام وإعلامي يضعهنّ في منزلة الآخر المختلف تماماً. وتحلّل كريمي هذه المقاومة على المستويات السياسية والمهنيّة والدينية، محاولةً إظهار تأثيرها على المسارات والتجارب الشخصية الخاصّة بالنساء اللواتي يقمن بها.

نصوص

كان يشير إلى هموم أعرفها

قصص من برشلونة

مات سانتياغو إسبيرانثا وهو يفكّر بتغيير السكّان. مات عن سبعين سنة. لا يوم زائد ولا يوم ناقص، كما كان يحب أن تكون الأشياء من حوله

باسم النبريص

على ما يرام

أول ما فعله فرانكو، لما فتح عينيه، أن حمد الله على العودة. تزحزح قليلاً وصرخ منادياً رئيس الحرس. جاء الأخير ورفع البلاطات، وقبل أن يقف فرانكو، أدّى الحارس التحية العسكرية اليَا.

بعد وقوفه، أمر فرانكو بسرعة تجهيز الحمّام، وإحضار الملابس الجديدة من الخياط الخاص.

ساعة على المائدة، ونزل فرانكو ليتفقد الأحوال.

عندما عاد من جولته المسائية، كان مبسوطاً، وأمر الحارس بإرجاعه إلى حيث كان.

استغرب الحارس فعاجله: نفّذ! كل شيء كما ينبغي، ويلزمني قسط آخر من الراحة.

■■■

سكّان

مات سانتياغو إسبيرانثا وهو يفكّر بتغيير السكّان. مات عن سبعين سنة. لا يوم زائد ولا يوم ناقص، كما كان يحب أن تكون الأشياء من حوله.

شاركنا في مراسم الدفن، نحن أصدقاءه الأربعة بعد اتصال ابنته أنخيل. كنّا ثمانية أشخاص أو عشرة . مع صديقاتها. ونحن عاندون تمنّت لو فكر الجميع، مثلي، بإعادة اكتشاف الماء الساخن: بتلك المعاني المزيفة للمكسب والخسارة.

أنخيل قبّلتنا وقالت إنها ذاهبة لتخليص بضعة أوراق في البنك. وحسناً فعلت البنت. فقد كان المرحوم يفكر بتغيير السكان، بل المنزل كله، لأنّه لا يمضي شهر إلا ويتعطّل فيه شيء.

في آخر مكالمة، قال:

محروم من الاغتسال منذ وقت. ولا بد أن أعيش بحسابات باردة كي أحصل على الماء الساخن.

كان يشير إلى هموم اعرفها مع البنك. ولم يخطر بباله أن يتعطّل هو الآخر مثل سخّانه في يناير.

■■■

شعاع

على الممشى المعشوشب، نقطة ضوء، يستطيع أن يميّزها من حيث يجلس. هل تسرّبت من أغصان الدلبة الكبيرة؟ الدلبة التي تُظلّه ومَن حوله في هذا الربيع الصائف؟

ينظر للأغصان جاهداً ليحدّد مسقط الضوء. ترى من بين أية ورقتين؟ الأوراق التي تشبه ورق عنبته هناك، التي عرف أنها دلبة بعد سؤال، التي بحجم الكفّ، التي تظلل غربي الصبية الآن، فتهبه كل مجده الزاهي، بهاءه وحسّيته .. النقطة تزحف من ظاهر الفخذ وتضيء جانب النهد، وهو ينتقل ببؤبؤيه الحمراوين بين الأوراق اليانعة، فيرى ببغاء أرجنتينية تلتهم نصف رغيف. يتوقف يائساً، وينظر للنقطة، فإذا هي متعامدة على رأس الحلمة الزهرية الصغيرة.

الصبية رمت الصدارة جنبها واستوحدت مسبلة الجفنين في حمّام شمس، وقريباً منها، ثلّة من سائحات الشمال يفعلن بالمثل.

سيوتاديا هادئة، وهو نسي النقطة والأغصان، وادار جسده للجانب الآخر، حيث ثلاث نملات يحملن رزقهنّ، ودوريان ينبشان التراب.

تذكّر أنه لم يفطر، ولمعت الفكرة: بعد الاستيقاظ، تطفح السلال.

(شاعر فلسطيني مقيم في بلجيكا)

«تجوال في برشلونة» لـ هيذر ارياس

إضاءة

باي الشعب بناء درامي لمسار تعثر الثورات في تونس

في سيرة علي بن غذاهم

لطالما كان تجسيد سيرة علي بن غذاهم في عمل ضمن الفنون البصرية طموحاً في الساحة الثقافية في تونس. مؤخراً جرى عرض فيلم وثائقي حوله

تونس ـ **ليلى بن صالح**

بالتزامن مع الذكرى العاشرة للثورة التونسية، جرى منذ أيام إطلاق الفيلم الوثائقي «باي الشعب» (إخراج: أمان الغربي وسماح الماجري، سيناريو: شاكر بوعجيلة، 90 دقيقة) والذي يتناول مرحلة من تاريخ تونس (القرن التاسع عشر) شهدت هي الأخرى انتفاضة شعبية هزّت النظام وقتها وكانت سبباً في تغييرات عدّة. شكّلت هذه الفترة مرجعية للثورة التونسية الأخيرة، خصوصاً أنها انطلقت من نفس المجال الجغرافي تقريباً.

عُرض العمل أوّل مرّة في «مدينة الثقافة» في تونس العاصمة يوم 11 كانون الثاني/ يناير. ومع عرضه تلفزيونياً في ذكرى الثورة (14 كانون الثاني/ يناير، قناة الجزيرة الوثائقية)، أخذ مساحة جماهيرية أوسع عادت شخصية علي بن غذاهم إلى الأذهان، وهو الذي عُرف بلقب «باي الشعب» في إشارة للقطيعة التي كان يشعر بها التونسيون مع الباي، محمد الصادق، في تونس العاصمة، حيث اعتبروه بايا (ملكا) على حاشيته وجنوده لا غير.

يضيء العمل الخلفيات التاريخية لانتفاضة الشعب التونسي مع بن غذاهم في عام 1864، حيث يكشف المؤرخون المشاركون في العمل الوثائقي حجم الانتكاسة الاقتصادية التي عرفتها البلاد في منتصف القرن التاسع عشر بسبب سوء إدارة موارد الدولة وتضخّم المديونية تجاه البلدان الأوروبية، وهو ما أدّى إلى زيادة المبالغ المالية المدفوعة في الضرائب، ما أرهق التونسيين فدخلوا في ثورة ضد نظام الحكم منذ أن دعاهم بن غذاهم لذلك.

ما يُحسب للعمل هو قدرته على البناء الدرامي - ضمن مفردات السينما الوثائقية - لمسار فشل الثورة، حيث يضيء مناورات المسؤولين لتحويل وجهة الغضب الشعبي وتشتيته، من خلال الوعود التي جعلت الجماهير تنفضّ عن «باي الشعب» بالتدريج. ولا يخفي هنا التقاء مصير هذه الثورة مع الكثير من وقائع ثورة 2011 وما آلت إليه هي الأخرى من التفاف على مطالبها.

لكن لا يمكن تفسير حسن استقبال هذا العمل بتزامنه مع إحياء الذكرى العاشرة للثورة التونسية، حيث إن تحويل سيرة علي بن غذاهم إلى فيلم كان طموحاً في الساحة الثقافية ظهر منذ سنوات في تونس، من ذلك أن المخرج التونسي الراحل شوقي الماجري (1961 - 2019) قد اعتبر أن تجسيد هذه السيرة سينمائياً ودرامياً هو أكثر مشروع يتمنّى تحقيقه، مشيراً إلى أن هذا العمل يأخذ بعداً شخصياً لأن لديه قرابة دم مع علي بن غذاهم. في 2015، بدأ الماجري بالفعل في التقدّم في إنجاز المشروع، مع المنتج نجيب عيّاد والكاتب حسنين بن عمّو، قبل أن تتفرّق بهم السبل بعد حوالي سنتين، لينهار المشروع برمّته، ولم يُخفِ الثلاثة خيبتهم.

ما كان يفترض أن يكون سيناريو عمل يخرجه شوقي الماجري عن علي بن غذاهم بات نصّ رواية نشرها بن عمّو في 2018 بعنوان «عام الفزوع» (دار نقوش عربية)، وعرفت نجاحاً جماهيرياً لفت إلى حاجة الجمهور التونسي إلى الرواية التاريخية وإقباله عليها. يُذكر أن سيرة بن غذاهم قد كانت موضوع رواية أخرى بعنوان «باي العربان» (دار زينب، 2015) لجمال الجلاصي.

هناك تقاطعات كثيرة بين ثورة علي بن غذاهم وثورة 2011 في تونس

من الفيلم الوثائقي

فعاليات

كان يفترض أن يُعرض عند السادسة من مساء اليوم الاثنين في **مكتبة الباشورة العامة** ببيروت فيلم **زنار النار** للمخرج اللبناني **بهيج حجيج** المقتبس عن روايتين لرشيد الضعيف هما «المستبد» و«فسحة مستهدفة بين النعاس والنوم» قبل أن يتم فرض حظر تجول عام في لبنان. ويتناول الفيلم قصة استاذ فلسفة يعود إلى لبنان خلال الحرب الاهلية ويواجه الخراب.

حتى الخامس من آذار المقبل، يتواصل معرض **العيش مع الفن.. من بيكاسو إلى سيلمينز** في **المتحف البريطاني** بلندن. يضم المعرض ثلاثين مطبوعة ورسما للفنانين بيكاسو، وماتيس (الصورة)، ولوسيان فرويد، وبريجيت رايلي، وديفيد هوكني، وفيغا سيلمينز.

ضمن سلسلة **قراءات صينية**، تنظّم **مكتبة القاهرة الكبرى** في العاصمة المصرية عند السادسة والنصف من مساء السبت المقبل لقاءً مع الكاتب الصيني **يو هوا** (1960). يرصد هوا في إعماله تحوّلات المجتمع الصيني منذ «الثورة الثقافية» وحتى اليوم، وقد تُرجم بعضها إلى العربية ومنها المجموعة القصصية «الماضي والعقاب».

يتواصل حتى منتصف نيسان/أبريل المقبل معرض **بعد ساعات العمل** في **دارة الفنون** بعمّان، والذي افتتح منتصف الشهر الماضي بمشاركة الفنانين علي حسين العدوي، نور ابو عرفة (الصورة)، واحمد منجي، وراما سبانخ، وعاشة عثمان، وسنابل عبد الرحمن. يتناول المعرض الالتزامات المؤسسية في الفن والكتابة والنشر.